الـهمّة السّهْم

طاهر الأزهر
باريس 21 محرم 1439هـ

بعثتَ تسألني عن ملامح صاحب الهمة، وقد بلغني سؤالك على حين فكرة مني في الموضوع، وقرارٍ وشيك على أن أكتب فيه شيئا.

وإني يا ابن أختي لا أجد رسْماً لهذا المعنى أجلى من الحديث عن نماذجَ قرّت في نفسي منذ قرأت عنها، فأدهشني ما كانت عليه هممهم في تحصيل ما وهبوا نفوسهم له! فاسمع حديث ذاكرتي عنهم، فليس عندي اليوم من مكتبتي شيء أعتمد عليه، لعل الحماس لما ستقرأ يدفعك لشيء من التأسي، وحين أفرغ سأختم لك بكلمة يكون فيها بإذن الله فلاحك وقوام أمرك.

قبل سنوات خلت، وكنت في سَفرة معتادة؛ قررت فجأة وبلا سابق تخطيط أن أقرأ كثيرا مما كُتب عن السجون والسير الذاتية للمساجين (وكان من فأل تلك القراءة أن سُجنتُ بعدها بسنوات، فوجدت عون الله خير أنيس، وكانت تلك القراءات زاداً عجيبا يبعث على الأريحية في وحشة الزنازين، ومرجعا لحل كثير من فُجاءات الغرف المُعْتمة، وبلا شك هو تدبير اللطيف الخبير).

وكان فيما قرأت مثلا سيرة مالكوم إكس، وهي سيرة تكشف خبايا هذا الرجل الفذّ رحمه الله، قبل أن يُسلم حين كان في حياة الضياع، وبعد أن ظنّ أنه أسلم، وكان ظنه في غير محلّه، وبعد أن اكتشف الدين الحق؛ فجاهد فيه حق الجهاد

حتى استشهد وهو في مقتبل العمر، لم يجاوز بعْد الأربعين من عمره!

ويهمني من سيرته الآن ما نحن بصدده؛ وهو الحديث عن الهمم المتّقدة التي لا يخبو أُوارها، ولا ينطفئ سُعارها.

ذَكَر أنه حين كان مسجونا على ذمة سرقة أو نحوها من مخازي المراهقة، وبطبيعة الحال كانت الحياة في السجن رتيبة لا طعم لها، والتوّاق لا يرضى بالرتابة المملة، وإنما يبحث عن مشغلة تملأ وقته، فصاحب الهمة العالية يبحث عن عِلْقٍ نفيس يتعلق به، ودنيّ العزْم يتلمس الحضيض الأوهد!

كان مستواه الدراسيُّ نازلا، وكان عهده بالورقة والقلم بعيدا، وقد وقع في حرج حين بعث لأخته بمراسيل الوجْد والتهنئة، فبعثتْ إليه تؤنبه على رداءة خطّه، وفراغ أسلوبه، وشحّ معرفته؛ فهو لا يكاد يبين في شيء! ثم أعملتْ فيه النصيحة لعلمها بمعدنه وعزّته، ودلّته على أن يرفع عار الجهل عن نفسه، وأن يبدأ بتعلم الإنجليزية ككلّ طالب مبتدئ؛ وفعلا سارع مالكوم إلى البداية التي كانت غريبة بعض الشيء، حيث قصد مكتبة السجن، وكانت غاية في السعة والتنوع، ولنفتح قوسا هنا ثم نغلقه بعد قليل!

حين دخلت السجن وظللت فيه فترة قاربت الشهر، كان من أشدّ ما عانيته عدم وجود كتب ولا جرائد ولا مجلات، ولا أيّ شيء يمت للعلم ولا للثقافة والمطالعة بأيّ صلة، ولولا المصحف الشريف لكان العاقل مجنوناً، هكذا هي سجون بلادنا؛ تحرّم على السجين أن يقرأ ويكتب ويتثقف، وتدفعه للجنون دفعا، وتلك هي سجونهم!

لقد قصد الحاج مالكوم مكتبة السجن، ولم تكن له دراية بكيفية البداية، فاقتحم اللجّ بعزيمة ماضية كأنه قذيفة

مصبوبة، ودخل مكتبة طويلة عريضة، وتناول موسوعة مُعجمية لغوية، وانطلق يكتب الصفحة الأولى بنقاطها وفواصلها وحواشيها، ولأنه كان بطيئا جدا، فإنه استمر يكتب ويمزّق يوما كاملا حتى استقامت له بعد لأْي!

ثم نام بعد أن تنفّس الصعداء، ورأى أنه أنجز شيئا، ومن الغد أعاد الكرة، وفي كل مرة يقرأ الورقة التي كتبها حتى يتحفّظ ألفاظها ومعانيها، وهكذا حتى انتهى في مدة خمس سنوات أو ست من كتابة المعجم كله، وحفظ أغلب ما فيه، وكان محتويا على **مليون مفردة!!** ثم ولِهَ بالقراءة والمطالعة فلم يترك كتابا يقع بين يديه إلا التهمه وأتى عليه.

لقد غيّرت القراءة مجرى حياته بالكلية، حتى إنه لو رآه راءٍ لظنّه يسعى خلف شهادة علمية عالية، ولكنه في الحقيقة إنما كان يريد أن يحْيا فكرياً (هذا تعبيره)!

فإذا عرفت هذا وتيقّنته؛ فهل تتعجّب إذا علمتَ أنّ الرجل أصبح بعد ذلك بسنوات قليلة خطيب أمريكا الأول وساحرها المتكلّم، وسيدها في ميادين المناظرة والسجال!

أرأيت لو اكتفى بالعبث الذي نزاوله نحن يوميا، وتصفحَ وُريقات متفرقة من هنا وهناك، وتابع حسابات الفارغين على وسائل التواصل، أكان يتمّ له صنيعٌ مذكور نتدارس نحن اليوم أثره!

استنصح أحدهم شيخ العربية في زمانه العلامة الأديب مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، وطلب إليه أن يعرفه الطريقة المثلى التي يكون بها أديبا متمرّسا، فلم يغشه ولم يغرّه، وإنما أعطاه الدواء لمن أراد الشفاء، قال له صارما: "ما أرى أحدًا يفلح في الكتابة والتأليف إلا إذا حكم على نفسه حُكمًا نافذًا بالأشغال الشاقة الأدبية، كما تحكم المحاكم

بالأشغال الشاقة البدنية، فاحكم على نفسك بالأشغال الشاقة سنتين أو ثلاثًا في سجن الجاحظ أو أدب أبي العلاء المعرّي أو غيرهما".

وإنك لو قرأت (حياة الرافعي) لعرفت أيّ سجن عذْبٍ حكم به الرافعي على نفسه، حتى كان بحق إماما من أئمة البيان.. إنه التعب والجد والاجتهاد وصورٌ مشرقة من المثابرة والمتابعة في أمرّ صورها وأعنف حالاتها، جدٌّ يمنع من أكثر المتع والحاجات التي يميل إليها بنو آدم في العادة، لكن المتميزين لهم شأن آخر.

هل تعلم أنه دعي للكتابة عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فكتب مقالا هو في وحي القلم بعنوان: (السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية)، وكم كانت فجأتي حين ذكر صاحبه سعيد العريان الذي ترجم له في الكتاب الآنف أنه استعدّ للمقال بقراءة جميع صحيح البخار بقراءة درس في بضعة عشر يومًا !!

أفلا تعجب من رجل يقرأ ديوان الإسلام قراءة درس ودراية في أقلّ من عشرين ليلة، ليكون مقاله مبنياً على أساس متين، وكان رحمه الله قادرا لو أراد أن يكتب كتابا كاملا عن النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم دون رجوع لشيء من الكتب والتصانيف، فما عنده من مخزونٍ قرآني ونبويٍّ وإرث عربي يكفيه وزيادة في تحرير ما شاء وتجويده، ولكنه الصدق والإخلاص وأمانة الإمامة في الكتابة! إنها الهمة ومَضاء العزم يا ابن أختي!

كنت منتظما في دورات علمية فرضتْها عليّ قوانين حادثةٌ في فرنسا من أجل الاندماج ومعرفة الواقع الفرنسي، وكانت الدروس ثقيلة على روحي، ويتعسّر عليّ فهمها أحيانا، حتى هممت بالانقطاع وليكن ما يكون، ففطن لي طالب

فرنسي كانت بيننا صحبة، وكان رقيق الجانب، ليّن الكلمة، صادق الود؛ فأسف لعزمي ولامني على الانهيار السريع، وقال لي: أرجو أن تسمع قصة (لس براون) مِن فيه، ثم قرّر ما شئت!

والسيد براون؛ رجل من السود الأمريكان، يحكي عن نفسه حكاية عجبا، يقول إنه كان في طفولته وإلى مرحلة الثانوية موصوفا بالبلادة والغباء وثقل الظل وزد عليها ما تشاء من أوصاف سقوط الحظّ.

يقول: إلى أن كانت لحظةٌ غيّرت نظرته إلى نفسه حين أقنعه أستاذه بأن أجمل تحدّ لمن يعيّرك بالغباء أن تثبت له العكس، ولمن رماك بالفشل أن تقهره بالنجاح، وكذلك كان.

بدأ (لس براون) رحلته في إثبات ذاته حتى أصبح اليوم خطيبا جماهيريا تُعقَد له كثير من اللقاءات في ملاعب كرة القدم من كثرة الحاضرين، ومقاطعُ اليوتيوب شاهدة، وليس القصد أن تشترك النوايا أو تتشابه، ولكن القصد أن نجدّ ونجتهد ونعزم ونتوكّل.

لقد أتى على بلدنا الجزائر حينٌ من الدهر رزحتْ فيه تحت ظلم الاحتلال الفرنسي الغاشم، الذي عمل على بث الجهل ومحاربة الإسلام ومسخ الفطر ومنع العربية، إلى غيرها من المكاره التي أُجبر عليها شعب برمته، حتى هيّأ الله له زمرة من العلماء بذلوا أعمارهم لله، واحتسبوها في سبيل العلم والتعليم والدعوة والجهاد، ومن المثال على ذلك أن الشّيخ البشير الإبراهيميّ رحمه الله حين افتتح دار الحديث بتلمسان في ثلاثينيات القرن الماضي، تفرّغ لها وشمر عن ساعد الجد والبذل، وكان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس متنوعة؛ يبدأ بعد صلاة الفجر بدرس الحديث، وينتهي بين المغرب والعشاء

بإلقاء درس جامع في التفسير، وما بين الإصباح إلى العشيّ دروس علوم الآلة والفقه والأصول والأدب وغيرها؛ فإذا ما صلى العشاء انصرف إلى مقهى يلتقي فيه بجمع من المثقفين فيلقي على أسماعهم محاضرة في التاريخ، واستمر ذلك مدة سنوات حتى غادر مدينة تلمسان.

وفي دار الحديث ختم الإمام الإبراهيميّ كثيرا من المقروءات والمسموعات التي نشرها بين الناس وشرحها لخاصة الطلبة.

ومن عجيب الأقدار أنني في أثناء كتابة هذه الكلمة وردتني رسالة من أحد الإخوة، وفيها كلمة للبشير رحمه الله؛ يقول فيها: (إن علماء القرون المتأخرة ركِبَتْهم عادة من الزهو الكاذب والدعوى الفارغة، فجرّتهم إلى آداب خصوصية؛ منها أنهم يَلزمون بيوتهم أو مساجدهم كما يلزم التاجر متجره، وينتظرون أن يأتيهم الناس فيعلّموهم، فإذا لم يأتهم أحد تسخّطوا على الزمان وعلى الناس، ويتوكّأون في ذلك على كلمةٍ إن صدقت في زمان، فإنها لا تصدق في كل زمان، وهي: "إن العلم يؤتى ولا يأتي"، وإنما تصدق هذه الكلمة في علم غير علم الدين، وإنما تصدق بالنسبة إليه في جيلٍ عرف قيمة العلم فهو يسعى إليه، أما في زمننا وما قبله بقرون؛ فإن التعليم والإرشاد والتذكير أصبحت بابًا من أبواب الجهاد، والجهاد لا يكون في البيوت وزوايا المساجد، وإنما يكون في الميادين حيث يلتقي العدو بالعدو كفاحًا، وقد قال لي بعض هؤلاء وأنا أحاوره في هذا النوع من الجهاد، وأعتب عليه تقصيره فيه: إن هذه الكلمة قالها مالك للرشيد، فقلت له: إن هذا قياس مع الفارق في الزمان والعالم والمتعلم، أما زمانك هذا؛ فإن هذه الخلة منك ومن مشائخك ومشائخهم أدّت بالإسلام إلى الضياع وبالمسلمين إلى الهلاك...).

ولن أطيل عليك بهمة البشير منذ وهو صبي، وما كان من خبره مع عمه الحاج المكي، فكل ذلك معلوم منشور، وكيف عبّاه عمّه بالعلم وشحنه بالخميرة النافعة؛ القرآن والسنة والمعلقات ودواوين الفحول حتى إنه حفظ نفح الطيب للمقري.

بالله قل لي لو لم تكن عزيمته سيفاً حادّا لا هوادة فيه؛ أكان يفلح وينجح ويتميز من بين علماء الجزائر مع أخيه الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله؟ ولا شك توفيق الله قبل ذلك وبعده.

إن الفتوح يا ابن أختي لا تأتي هكذا اعتباطا، وإنما يسبقها كفاح وآلام وشقاء وتعب ونصب لو تجمعت على جبل لأثقلته!

وأنت! ألم تختم العشر القراءات، كيف أنت مع مراجعتها وضبطها؟

دعني أخبّرك عن أخ كريم كان يؤم معي في المسجد حيث كنت أعمل، وهو متقنٌ للقراءة مبالغٌ في الاهتمام بها، سألته مرة كيف تحافظ على الإتقان؛ فقال لي بكثرة المراجعة، قلته له: وما حدّ ذلك، فقال: حين أردت أن أتقن رواية شعبة؛ قرأت بها ثلاثين ختمة، إيه والله الشاهد أنني سمعت منه هذا الكلام، وهو أهل للثقة! ثلاثون ختمة لرواية واحدة فكيف بالتسع عشرة الباقية، فما أعظمه من صنيع وما أجمله من تعب ودرس.. أفيحق للنائم الكسلان بعد هذا أن يستكثر على مثله أن ينجح ويفلح؟

في إحدى السفرات قررتُ أن أقرأ عن الذين حازوا جائزة نوبل في العلوم لأكتشف شخصياتهم وأستشفّ بعض ملامحهم، فوجدتهم على اختلاف جنسياتهم وأديانهم وأعمارهم يتشاركون خصلة واحدة، وهي التعب والجد وعدم

التهاون في الاجتهاد، حتى إنهم أثْروا المكتبة بقصص حياتهم التي يقف الواحد منّا أمامها حيران متعجبا من قدرة البشر على الصبر والمصابرة في تحصيل العلم والوصول إلى البُغية.

وكان فيمن استرعى انتباهي منهم، امرأة لا كالنساء، بل ولا ككثير من الرجال، وهبت نفسها للعلم، وضحّت بكل المباهج التي يتنافسها بنات جنسها، ويرضَيْن لأجلها ببذل كل شيء؛ غير أن هذه الأنثى (ماري كوري) كانت على منهاج مختلف بالمرة، قدِمت من بولندا إلى باريس وحيدة، ضعيفة اللغة، فقيرة؛ إلا من التصميم الأكيد والعزم المتوهّج، ومرت بها أهوال من التعب والإرهاق والفشل..

وسّع خيالك معي وتصوّرْها وهي في شتاء باريس القارص تلتحف ما لا يردّ بردا ولا يقي قرّا؛ تسهر الليل كله وهي تحادث نفسها بلغة جديدة عليها، وجيرانها يظنون بها الجنون أو المسّ؛ لا ترغب أن يتضاحك منها زملاؤها، ومرّتْ شهور على تلك الحال؛ سهر وبرد وجوع وتعب مُضْن، حتى استقام لسانها وقضتْ على اللكنة تماما، ثم اقتحمتْ قِسما علميا، والعادة ألا تقترب منه أنثى، وكانت المرأة أيامها ليست بذي شأن في عموم أوروبا، وشيئا فشيئا بدا للعباقرة أن هذه الآفة الأنثوية بزّتهم وفاقتهم وكشفت ضعفهم!

ثم ارسمْ لها صورة في خيالك وهي في مخبر تعيس مليء بالقوارير والمحاليل والمواد المشعة الخطرة، وهي تعالجها وتحرص عليها وتضنّ بها ضنين المرضع بوليدها، وهي في رحم التعب -مع كل هذا- لا تحفل بحبٍّ ولا متعة شأن غيرها من نساء أوروبا؛ سوى ما تنجزه من نتاج علمي أدهش العالم!

ولم تزل (ماري كوري) في كبد ومعاناة حتى وقفت على رجليها، وأذعن لها عباقرة العالم بأنها ابنة أبيها، وهي الوحيدة التي تحصّلت على جائزة نوبل مرتين، في تخصّصين علميين مختلفين (الفيزياء والكيمياء)، وهي مكتشفةُ عنصريْ (البولونيوم والراديوم)، وماتت سنة (1934) متأثرة بما حملته من لوثات إشعاعية بسبب بحوثها، وقد تركت لها اسما يلمع لا تمحوه الأيام والليالي إلى أن يشاء الله.

هذا وهي لا تؤمن برب ولا بجنة ولا نار، ولا تحتسب شيئا من الأجر، وإنما دفعها إلى هذا الاجتهاد رغبة إثبات الذات، ومتعة علمية فحسب!!

فكيف لا يجدّ العالم المسلم؟ وكيف لا يجتهد طالب العلم؟ ووراء عملهم لو أخلصوا جنانٌ عرضها السماوات والأرض، وكيف لا تذوب النفس شوقا وهي تعمل حين تتذكر استغفار الملائكة لها، والحيتان في الماء والطير في الهواء!

كيف يليق بك نوم وراحة وضياع، وغيرك ممن لا دين له ولا ملة هجَر كلّ ذلك في سبيل الوصول إلى مبتغى لا يحتسب من ورائه أجرا ولا مغفرة!؟

هنا في باريس كان يعيش رجل من خيار علماء المسلمين، ظل هنا لفترة تزيد على نصف قرن، قدّم فيها للإسلام والمسلمين وغير المسلمين عشرات الكتب والأبحاث والدراسات، حتى إن العلم شغله عن الزواج فعاش ومات متبتّلا، لا يرى له لذة في غير العلم والتصنيف والدعوة إلى الله، ولا أرب له في منكح ولا متاع، وكان آية في الزهد والتقلل وإنكار الذات، عاش هنا في الحيّ اللاتيني في شقة مستأجرة ليس فيها من متاع الدنيا ما يرد العين، ولكنها كانت مملوءة كتبا، لا يكاد الداخل إليها يبصر غيرها، وكان جاهه

العلمـيّ مـلء السـمع والبصـر، ولـو تشـفّع بـه لنيـل الـدنيا كمـا يصنع لئام العلماء لكان له ما أراد، ولكن الله عصمه فلم يتلوث ولم يتلطخ!

ومن أعاجيب ما يثبتـه معارفـه ومـن اجتمع بـه أنـه كـان يجيـد إجـادة تحكُّـم وتصـرّف وتـأليف سـت لغـات، وكانـت تصـانيفه موزّعـة علـى هـذه اللغـات المـتحكم فيهـا (العربيـة والإنجليزيـة والفرنسـية والألمانيـة والأرديـة والتركيـة)، وإن كانت الفرنسية أوفرها حظا.

وكان رحمه الله مجتهدا في العلم والتحرّي إلى الحدّ الذي يُقضَى منه العجب، وحكاياته في ذلك محفوظـة أثبتهـا تلاميذه الملازمون له، ومن ذلك أنـه سـار ماشيا علـى قدميـه مـن مكـة إلى حنين مرة، كمـا ذهـب إليهـا راكبـا حمـارا، ليقف بتجربتـه الشخصية على الحال التـي يكون عليهـا الراكـب والماشـي فـي الحرب والسلم أيام الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن الحكم علـى الشيء فرع عن تصوّره!

وحين مات هذا الجهبذ العبقريّ لم يجتمـع لـه فـي جنازتـه غير عدد قليل، ودّعوه إلى حيث الراحة من وعثاء الـدنيا بـإذن الله، فعاش غريبـا فـي مراحـل عمره كلهـا، ولـم تكـن لـه فرحـة بغير العلم والعبادة، وكان قدْره في الناس آخرَ همـه، بـل الظـن أنـه لم يكن على بالـه البتة، رحمه الله.

فما ظنك برجل عاش تسعين عاما علـى جـادة واحـدة فـي الانضبـاط والتحصيل ومؤاخـاة التعب والنصب فـي سبيل الله وابتغاء ما عند الله! وكذلك سيكون حـال مـن تقفّـى أثـره وسـلك طريقته.

هـل عرفتـه؟ إنـه الأسـتاذ العـالم الجليـل محمـد حميـد الله الحيـدرآبادي رحمـه الله، وقـد تـوفي قبـل حـوالي عشـرين عاما.

سألتني أكثر من مرة: كيف أقرأ؟ وما أقرأ؟ وكم الوقت الذي أنفقه للقراءة؟ وغيرها من الأسئلة المهمة، وأقول: لتكن لك نهمة لا تعرف الشِّبع من القراءة، ولْتجعلْ لك وردا يوميا لا تتنازل عنه أبدا، ولا شك أنك قرأت عن الشيخ عليّ الطنطاوي رحمه الله، وهالَك ما قرأ وكم قرأ! لقد كان يقرأ كلَّ يوم مئةَ صفحة على الأقل، وأحياناً ثلاث مئة أو أكثر، ما له عمل إلا القراءة، لا يقطعها إلا أن يكون مريضاً أو على سفر..

ذكر ذلك في مواضع متعددة من ذكرياته!

وقد عاش رحمه الله قرابة مائة عام!

وإنْ سئمت القراءة وكرهت المباحثة، أو تعبت تعَب المنهزم المستسلم؛ فتذكّر همة الشيخ الطنطاوي وغيره من الأفذاذ المتقدمين والمتأخرين، وقبل ذلك اذكرْ الملائكة الذين يكتبون عملك ويرفعونه إلى ربك الكريم! احرص على أن لا تفوتك وأنت تقرأ بجدّ واهتمام كلمةُ الرافعي ينصح بها طالبا: (فإن دأبتَ في القراءة والبحث، وأهملتَ أمر الزمن؛ طال أو قصر؛ انتهى بك الزمنُ إلى يوم يكونُ تاريخا لمجدك، وثوابا لجدّك).

ولا يخفى عنك أني لم أذكر لك عجائب سلفِ هذه الأمة من علمائها وعبّادها وصالحيها ذوي الهمم العالية؛ لأنها أصبحت عند كثيرين من أبناء هذا الزمان كأنها مُحال من الأخبار، وهي حقّ لا شك فيه، ولكنهم استغربوا ما لا يطيقون.. فلأجل ذلك أضربت عنها، وذكرتُ لك أخبار هؤلاء المتأخّرين، رغبة في سهولة الإقناع بها، والتهدّي بعجائبها وأحوالها، وأما أخبار الأوائل فسأكتفي منها بإحالتك على خبر واحد، يذكر رحلات الإمام أبي حاتم الرازي في سبيل العلم، وهمته في طلب الحديث والفقه فيه، وهو خبر

يغْنيك عن كثير سواه، يدلّك على ما كان عليه أئمة ذاك العهد من الصبر والمصابرة والمجاهدة القصوى للنفس؛ لتبقى هممهم متحفّزة لا تخور ولا تتضعضع؛ والخبر مرويٌّ في صدر كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم؛ رحمه الله.

وكلمتي إليك يا ابن أختي وإلى من يطلب أثيل المجد في العلم: لا يذهبْ وقتك هدرا، ولا يضعْ عمرك عبثا، وارحمْ كل دقيقة من يومك وشهرك وسنتك، فإن الله سائلك عن مثقال الذرة!

وابدأ بالباب الذي تميل إليه نفسك من العلم، واثبتْ فيه على شيء وإن كان قليلا، ولا تملّ القراءة وفنون الطلب ومراجعة المحفوظ، ثم توسّع شيئا فشيئا، وأدمن على هذه الحال تفلح، وأبْق على شرارة عزمك متقدة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك.

وفي تقدمة (المثل السائر) وصيةٌ نافعة حاصلها أن الكتب وإن كانت نافعة مهمة؛ فإن الدُّربة والإدمان أجدى وأنفع.

ولا والله لا أخدعك فأقول إن الدّرْب موطّأ، ولا أغشّك فأزعم أن المجال رحْب لكل من هبّ ودبّ! ولكنه بتوفيق الله يغدو سهلا بالممارسة والصدق وسثْر الحال.

وإن غفلتَ عن شيء مما خلا، فلا يغب عنك أن أُسّ هذا الأمر وعموده الذي لا قيام له إلا به أن تكون صبورا رابط الجأش، وتتيقّن أن ما يقوى عليه المتقدم السابق قد لا يطيقه المبتدئ الشادي إلا حين يشتدّ عوده، ويصير فحلا بشهادة الفحول العدول، فاحذر!! لا تحرق المراحل ولا تستعجل هلكةَ التصدّر، وظُنّ بنفسك أسوأ الظنون تنج!

واعلم أن كتب العلم والثقافة عموما لن تلقي إليك بمقاليدها وأجود ما فيها إلا إذا آثرتها بحَبّة قلبك، وحرارة

روحك، وجميع عمرك، وفي المقابل لن تعطيك غير الغبار والشقاء إذا هوّنتَ أمرها وأهملت حقها، وأعطيتها فضول الفضول من وقتك وجهدك، وقديما قال أبو الطيب:

إن السيوف مع الذين قلوبهم كقلوبهنَّ إذا التقى الجمعان
تلقى الحسامَ على جراءة حدِّه مثل الجبان بكفّ كلِّ جبان

هكذا هي السيوف! لا تكون صارمة بتّارة إلا إذا تناولها الشجاع المُقْدم حين يحمى الوطيس؛ وكذلك الكتب، وما أكثر من رأيناه جمع مكتبة لا أروع ولا أوسع ولا أمتع منها، ولكنه لم ينتفع منها بشيء ذي أثر؛ إنما جمعها ليُمتع بها نواظر زوّاره، وليقال جمّاع كتب، وقد قيل!!

فإذا ما تضعضعت وفشلت -وأعيذك بالله من ذلك- مع توفّر كل ما يدفعك للنجاح وكريم العاقبة؛ فنفسَك لُمْ ولا تعذل سواها، والعرب تقول: "إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر".

ليكن عنوان هذه الكلمة مرسوما في بالك لا يغيب أبدا (الهمة السهم) مُسمَّرا بين عينيك تبصره دائما.. انطلق ولا تلتفت؛ شأنَ السّهم إذا رَمى به الخِرِّيت، لا يطيش ولا يَحيد، ولا يتلجلج ولا يميد؛ حتى يصيب هدفه، وهدف المومن الموت على طاعة!

وهذا أبو الطيب يحيّيك:

إذا غامرت في شرف مَروم فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعم الموت في أمْر حقير كطعم الموت في أمر عظيمِ
يرى الجبناءُ أنّ العجز عقْلٌ وتلك خديعةُ الطّبع اللّئيمِ

رزقك الله الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، ودُمْ في أمان الله وحفظه،،،